تقنيات كتابة الرواية التاريخية عند جرجي زيدان

■ تهدف هذه الدراسة على تحليل تقنيات كتابة الرواية التاريخية عند جرجي زيدان والكشف عن دور هذه التقنيات في الإسهام في تأصيل الأشكال الروائية في المرحلة الأولى من مراحل تاريخ الرواية العربية الحديثة، ونرى بداية أن تجربة كتابة الرواية التاريخية لدى جرجي زيدان تكشف عن كثير من العوائق التشكيلية والبنائية والأسلوبية التي كانت تواجه كتاب الرواية العربية ولاسيما الرواية التاريخية. في قرن تأصيل الأنواع الأدبية الحديثة الواقع بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، كما تكشف مساعي جرجي زيدان، وغيره ضمن كتاب الرواية التاريخية في قرن التأصيل، عن كثير من التحولات التي لابست الأشكال الروائية أو السردية عامة في ذلك القرن، وإذا كانت العلاقة بين تلك العوائق والتحولات قد أدت خلال قرن كامل إلى تأصيل الأشكال السردية الحديثة، فإن ذلك التأصيل كان يكشف في صيرورته وفي تحققه، عن التأثيرات الإيجابية التي أفرزتها العلاقة الجدلية بين كتابة الأشكال السردية والجمهور المتلقي الذي كان هؤلاء الكتاب يتوجهون إليه.

سامي سليمان أحمد

وتقوم هذه الدراسة بوضع روايات جرجي زيدان التعليمية في سياقها التاريخي المتصل بنشوء الرواية العربية الحديثة، ولا سيما الرواية التاريخية، وضعا يكشف عن كون روايات زيدان جزءا من ظاهرة أدبية واجتماعية، ويهيئ ذلك الوضع للقارئ أن يجعل من تحليله كتقنيات الكتابة عند زيدان قائما على إدراك الأدوار التي تؤديها التقنيات الكتابية الجمالية في سياق مادي جمالي متعين يفسر في جانب من جوانب تحولات هذه التقنيات في روايات زيدان التاريخية.

بدأ جرجي زيدان تقديم سلسلة رواياته عن تاريخ الإسلام في بداية العقد الأخير من القرن التاسع عشر ١٩٨١م وظل يقدمها حتى وفاته في عام ١٩١٤م وقدم فيها اثنتين وعشرين رواية، اعتمد في القليل منها على وقائع بعض الفترات التاريخية الحديثة أو المعاصرة له، أو بعض شخصيات التاريخ العربي المصري الحديث، كما في روايتيه "محمد علي" ١٩٠٧م و"الانقلاب العثماني" ١٩١١م كما جعل من روايته "فتاة غسان" ١٨٩٨م فرصة لتناول بعض أحداث العصر الجاهلي تمهيدا لتصوير التغير الذي أحدثه ظهور الإسلام في الشخصيات التي عاصرت الجاهلية وبداية الإسلام.

وركز زيدان في الكم الأكبر من رواياته التاريخية على تقديم أحداث التاريخ العربي الإسلامي، فركز على بعض المراحل والشخصيات المؤثرة فيه، فكتب روايات متعددة منها "الحجاج بن يوسف" ١٩٠٢م و"أبو مسلم الخرساني" ١٩٠٥م والعباسة أخت الرشيد ١٩٠٦م و"الأمين والمأمون ١٩٠٧م و"عبدالرحمن الناصر" ١٩٠٩م و"صلاح الدين ومكائد الحشاشين" ١٩١٣م وغيرها.

ولم تكف كتابة زيدان هذه الروايات التاريخية منفصلة عن السياق الأدبي الموازي له في مجال السرد العربي الحديث، ففي الفترة الممتدة من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إلى عام ١٩١٤م (حيث توفي زيدان) ساد خطان روائيان هما الرواية التعليمية التي مثل كتاب "علم الدين" ١٨٨٣م لعلي مبارك نموذجها الأجلى، والروايات التاريخية التي بدأها سليم البستاني في بلاد الشام فكتب "زنوبيا" ١٨٧١م "وبدور" ١٨٧٢م و"الهيام في فتوح بلاد الشام" ١٨٧٤م وقدم جميل نخلة المدور روايته حضارة الإسلام في دار السلام، عام ١٨٨٨م وفي الفترة ذاتها قدم رفاعة الطهطاوي صياغته للسيرة النبوية التي حملت عنوان "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" والتي أفاد فيها من تقنيات الرواية التاريخية والرواية التعليمية.

ويكشف ذلك السياق الأدبي، من وجوه التلاقي بين الرواية التعليمية والرواية التاريخية، وتتبدى هذه الوجوه في الهدف وطرائق التشكيل على السواء، فقد كان تعلم التاريخ بالمعنى العام والمباشرة لهذه العبارة هدفا مشتركا جعل الكتاب يضيفون إلى تقديم الحقائق التاريخية المتعلقة بفترة ما تصوير بعض الجوانب الحضارية التي تميز هذه الفترة، وتصوير ما كان يسود فيها من اخلاق وعادات، ولعل هذا ما يفسر ما وصف به جرجي زيدان الكاتب الروائي من أنه كان (لا ينظر إلى التاريخ على أنه مجرد أحداث سياسية).

حدد ذلك لهدف التقنيات المختلفة التي اعتمدها جرجي زيدان، وهي تقنيات يعود بعضها إلى الأشكال السردية أو الروائية، بينما يعود بعضها الآخر إلى ألوان من الكتابة التاريخية والمقالية، ولعل ذلك الجمع بين هذين النمطين من التقنيات دال كاشف على مسعى زيدان على تأصيل الرواية التاريخية مما يفضي إلى قبولها أو تقبلها لدى فئات عديدة من جمهور المتلقين.

وتتصدر العنونة تقنيات زيدان، وتكشف هذه التقنية عن الازدواجية المحورية التي تتجلى في مختلف تقنيات زيدان الكتابية، إذ تحمل رواياته التاريخية عنوانا مزدوجا، فثمة عنوان رئيسي يثير لدى القارئ توقع أن تكون الرواية تصويرا لشخصية تاريخية، وثمة عنوان ثانوي يمثل تفسيراً وإيجازا لعدد من الحوادث والجوانب الأساسية التي ستيناولها زيدان، فرواية "العباسة اخت الرشيد" تحمل وصفا أو توصيفا يصفها بأنها (تشتمل على نكبة التراكمة وأسبابها، وما يتخلل ذلك من وصف مجالس الخلفاء العباسيين وملابسهم ومواليهم، وحضارة دولتهم في عصر الرشيد).

وأما التقنية الثانية فهي تقنية الحبكة التي تقوم لدى زيدان على صيغة الجمع بين حكاية وقائع تاريخية، وحكاية متخيلة غالبا ما تكون حكاية عاطفية، وإذا كانت الحكاية الأولى تتشكل من عناصر قدمتها المصادر العربية القديمة عن الشخصية أو عن الفترة موضوع الرواية، فإن الحكاية المتخيلة تستند دائما إلى شخصيات تاريخية يملك الكاتب حرية الإفاضة في سلوكها وابتكار أحداث تنسب إليها، ويستطيع الكاتب مجاوزة بعض الأطر التاريخية في تصويره لها ففي رواية "العباسة أخت الرشيد" تجمع الحبكة بين حكايتين تصور أولاهما وقائع صعود البرامكة وسقوطهم عبر أحداث كثيرة، وتركز على علاقة جعفر البرمكي بالعباسة بوصفها حكاية تتضمن خطا عاطفيا قويا، وتصور ثانيتهما حب الشاعر "ابي العتاهية" جارة العباسة، وفيما يستخدم زيدان عددا من التقنيات السردية الصغيرة" ويتيح للخيال دورا في تشكيل هذه الحكاية، وإن كان خيالا إحيائيا "معتقلاً".

ولهذه التقنية نظائر عند كتاب الرواية التاريخية وكتاب الرواية التعليمية المعاصرين لزيدان، على نحو ما يتجلى لدى "جميل نخلة المدور" وعلي مبارك.

وتبدو تقنية الاستطراد ذات فعالية في تشكيل الحدث وتصوير الوقائع المختلفة وتقديم عدد من الجوانب المتصلة بالشخصيات الرئيسية، ففي رواية "العباسة أخت الرشيد" يتواتر استخدام هذه التقنية (على سبيل المثال في صفحات ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١ ، ٤٠ ، ٤١ وغيرها) ففي هذه المواضع تؤدي هذه التقنية عددا من الوظائف الأساسية، منها تقديم المعلومات للمتلقي، ففي موضع ينتقل الراوي من الحديث عن بعض ملامح العباسة الخارجية إلى الحديث عن أول من اتخذت العصابة المكللة، وينتقل في موضع ثان من تقديم الملامح الخارجية للفضل بن الربيع إلى الحديث عن أنواع الأمزجة وتأثيرها في السلوك. كما تؤدي هذه التقنية دورا في التأثير العاطفي في القارئ، وتقديم بعض النصائح والحكم التي يستخلصها الراوي من الحدث، على نحو ما يتجلى في تعليقات الراوي التي ترد بعد وصفه لقاء العباسة بجعفر.

وتتجلى التقنية ذاتها في "علم الدين" لعلي مبارك، مما يشير إلى تأصيلها لدى كتاب الرواية التاريخية وكتاب الرواية التعليمية.

واعتمد زيدان على مجموعة من التقنيات السردية "الجزئية" التي تهدف إلى إحداث التشويق، أو إلى تغيير مسار الحدث، أو إلى كشف جانب من جوانب الغموض في الحدث، وتجلى ذلك في تقنيات المصادفة والحيلة والمفاجاة، والصراع أحيانا، ولكن الهدف التعليمي المباشر قد "تحلل" من تاثير هذه التقنيات، وجعل الملامح التعليمية بارزة في السرد، على نحو ما يتجلى في رواية "العباسة أخت الرشيد" على سبيل المثال.

وفي بنية روايات زيدان التاريخية كان يوازي التقنيات الجمالية السابقة مجموعة أخرى من التقنيات المستمدة من الكتابة التاريخية ومن الكتابة المقالية، وأبرز هذه التقنيات تقديم الحقائق التاريخية كما هي، وتقديم وصف تاريخي وجغرافي دقيق مفصل لأماكن الحوادث، وإسناد المعلومات إلى مصادرها، وتصوير جوانب الحياة الاجتماعية والحضارية وأجواء التنافس السياسي في بلاط الحاكم، وتميزها.

وتبدو هذه التقنيات جلية في رواية "العباسة" فقضية إسناد المعلومات إلى مصادرها الأصلية تتجلى في حرص زيدان على أن يثبت المراجع التاريخية التي استمد منها وقائع روايته، وبقدر ما كانت هذه التقنية ناتجة عن مبدأ إلزام الكاتب نفسه بذكر الحقائق كما كانت وغير واصف الأشياء إلا بصورها فإنها دالة على التأثير الذي لعبه الجمهور المتلقي في دفع كانت الرواية التاريخية (زيدان وغيره من الكتاب) في حاجة إلى توثيق مصادره.

وأما تقنية تصوير جوانب الحياة الاجتماعية والحضارية فتبدو في رواية "العباسة" جلية في وصف زيدان لقصور بغداد وأسوارها ص٣-٤ ووصفه التفصيلي لقصر الأمين وبستانه، وكذا قصر الرشيد (٨٧ -٨٨) ووصفه قصر زبيدة ص٧٩-٨٠ ومعظم ملامح هذه الأوصاف منقولة عن المصادر التاريخية. واقترن بهذه الجوانب وصف جوانب الحياة الحضارية لاسيما في قصور الخلفاء وعلية القوم؛ كوصفه جوانب اللهو ٥٧ - ٦٤ وموكب الرشيد ٨٥ ووصف الرقيق وأصنافهن وطرق تربيتهن وإعدادهن لمتطلبات الحياة العباسية ص٢٣ - ٢٨ وظاهرة التمسك بالطالع ص١٣٧ - ١٣٨ وتصوير مجالس الرشيد في جده ولهوه ص٩٩ - ١٠٤ ،

وبقدر ما كان تصوير تلك الجوانب استعادة "كاملة" للملامح التاريخية والحضارية، فإنه كان يؤكد أن "الخيال المتعقل" يمثل مبدأ من المبادئ الحاكمة لكتابة الرواية التاريخية عند زيدان.

أما تصوير أجواء التنافس السياسي في بلاط الحاكم فقد كان يؤدي وظيفة مزدوجة؛ إذ كان وسيلة لاستعادة العصر التاريخي الذي تدور فيه الوقائع، من ناحية، وسبيلا إلى إضاءة الحكايتين اللتين تقوم عليها الحبكة من ناحية أخرى. وبرز ذلك التصوير في "العباسة" وتجلت جوانبه في تصوير الصراع بين الفضل بن الربيع والبرامكة، وتقديم بدايات الصراع بين الأمين والمأمون، وتصوير لجوء أفراد الطبقة الحاكمة إلى التجسس على بعضهم البعض.

كانت التقنيات الكتابية المختلفة التي استخدمها زيدان في تشكيل الرواية التاريخية متصلة، من ناحية، بالجمهور المتلقي الذي كان يتوجه إليه، كما كانت، من ناحية ثانية، سبيلا إلى تأصيل الرواية التاريخية. والأشكال السردية الحديثة. في الأدب العربي الحديث.

حرب من الكلمات.. اللغة والصراع في الشرق الأوسط

عرض/ كامبردج بوك ريفيوز

يقدم البروفيسور ياسر سليمان- أستاذ اللغة العربية والدراسات الشرق أوسطية ومدير معهد ادنبره باسكتلندا للدراسات المتقدمة عن العالم العربي والإسلامي- مساهمة غنية عبر هذا الكتاب لحقل الدراسات اللغوية واللسانية وأثرها وتأثرها بالمناخ الصراعي والسياسي الذي تشتغل فيه.

اللغة هنا وعندما تكون في بيئة غير محايدة وتتناقض مع لغة أخرى تصبح أكثر بكثير من أداة اتصال يومي وتتحول إلى تعبيرات مركبة لها مدلولات عميقة منعكسة عن قلب الصراع الدائر بين الأطراف المعنية.

وفي الشرق الأوسط وخاصة في الحالات الدراسية التي ركز عليها كتاب سليمان- أي في فلسطين وإسرائيل والأردن- مع إطلالات على سوريا ولبنان تصبح اللغة سلاحاً في الصراع ووعاءً تترسخ فيه الهوية وتدافع عن نفسها بل تصبح هي ذاتها كلغة عنواناً من عناوين الهوية.

كما تصبح فضاء ثقافياً يفرض تحديات شبه صارمة بحيث تعمل اللغة على تعريف الفرد لناحية الانتماء الوطني إلى جماعته خاصة في سياق الصراع مع جماعة أخرى.

ويتناول الكتاب أربعة موضوعات رئيسية يفرد لكل منها فصلاً خاصاً كما تتداخل التعليقات والتحليلات في الفصول المختلفة وكذا في المقدمة وخاتمة الكتاب لتدعم بعضها بعضاً.

الموضوع الأول هو اللغة والقوة والصراع في الشرق والثاني هو اصطدام اللغات المحلية والدارجة باللغة الفصحى والثالث هو اصطدام اللهجات العامية ببعضها البعض" حالة الأردن" والرابع هو اصطدام اللغات ببعضها.

اللغة والصراع في فلسطين وإسرائيل

في الموضوع الأول الخاص بعلاقة اللغة بالقوة والصراع في الشرق الأوسط يضع المؤلف القواعد والمناهج الأساسية التي اعتمد عليها في مقاربته لموضوعات الكتاب.

وهو يوزعها إلى ثلاثة مسارات: أولها اللغة ولهجاتها المحلية وينعكس ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بالصراع بين اللغة العربية الفصحى واللهجات الدارجة وثانيها اللهجات المحلية التابعة للعربية الفصحى والمتصارعة في فضاء جغرافي محدد وثالثها احتكاك أو اصطراع لغتين أو أكثر.

ويتناول سليمان العديد من الأمثلة لتوضيح هذه المسارات الثلاثة وتمييزها. ومن الأمثلة والسرديات الممتعة في هذا الفصل التجربة الشخصية للمؤلف عند زيارته موطنه الأصلي فلسطين بعد إقامة طويلة في الغرب وكيفية استخدامه للغة الإنجليزية هو وعائلته في التخاطب مع الجنود الإسرائيليين على الحواجز الأمنية.

فرغم أن أولئك الجنود يتنبأون بأنه فلسطيني سواء من لون بشرته أو اسمه الواضح في جواز السفر البريطاني فإنه يصر على أن لا يتحدث معهم إلا بالإنجليزية التي لا يتقنونها.

وفي سياق وضع صراعي على مستوى محدود وعبر الإنجليزية فإنه يؤثر في ميزان القوى الصغير بينه كطرف ضعيف وبينهم كطرف قوي حيث يستخدم مكانة الإنجليزية كلغة عالمية محترمة هو يتقنها بينما هم يتلعثمون فيها.

لكن الأهم من ذلك أن اللغة في الوضع الصراعي تستخدم كالحدود: تفصل بين البشر وتحدد معنى الانتماء إلى المجموعات الاثنية والقومية إذ لا يمكن الاعتراف بانتماء عنصر دخيل إلى الفضاء الاثني أو القومي المحدد من دون اشتراطات هوياتيه تدخل اللغة في قلب تكوينها.

وإضافة إلى ذلك فإن اللغة هي محل صراع بين القديم والحديث بين التراث والحداثة فهي أحد أهم ميادين الصراع إن لم تكن الميدان الأهم وهو ما تجلى في الثقافة العربية على مدار القرنين الماضيين.

فدعاة الحداثة والعلمنة كان من موضوعات التحديث لديهم تحديث وتطوير اللغة وفي المقابل كان دعاة المحافظة على الأصالة يدافعون عن اللغة كما هي ويرفضون الأفكار الجديدة الداعية إلى تطويرها وتحديثها.

وهكذا لا تتجاوز اللغة وظيفة الدور الاتصالي والاداتي فحسب بل تصبح مشحونة بالرموز والصور ومحملة بالقضايا ومرآة عاكسة للصراعات في المجتمع وحوله.

الصراع بين الفصحى والعامية

في موضوع الصراع بين الفصحى واللهجات العامية يركز سليمان على البعد الاجتماعي للغة التي هي في صوت صراع ويتعمق في جوانب المعركة الشديدة التي قامت ولا تزال قائمة بين معسكر المطالبين بتحديث اللغة العربية ومعسكر المدافعين عن شكلها التقليدي.

وأهمية هذا الصراع كما يشير المؤلف تتجاوز بكثير مسألة تحديث اللغة التي قد تبدو أمراً طبيعياً بل ومطلوباً ويصعب تصور نشوء أي خلاف حاد عليه.

فهنا وعندما يتعلق الأمر باللغة العربية الفصحى يصبح أمر المناداة بتحديثها تحدياً مطروحاً يمس قضايا حساسة راها المعسكر المضاد واقعة في قلب الصراع على الهوية العربية والدفاع عن الإسلام بل والدفاع عن الاستقلال الوطني.

فقد ارتبطت دعوة تحديث اللغة العربية بالاستعمار وكانت تجلب معها استدعاءات وظلالا لتجارب شبيهة خاصة التجربة التركية التي لفظت الحرف العربي وتبنت الحرف اللاتيني لهذا كانت المقاومة لها شديدة.

لكن ماذا كانت تتضمن الدعوة إلى تحديث اللغة؟ وماذا أراد التحديثيون؟

يفرق سليمان بين فريقين من التحديثين: الأول راديكالي والآخر معتدل. الراديكاليون طالبوا باعتماد اللهجات المحلية عوضاً عن الفصحى والكتابة بتلك اللهجات واعتمادها كلغات رسمية والبعض منهم طالب بالتخلي عن الحرف العربي وتبني الحرف اللاتيني باعتبار أن ذلك سيقرب العرب من أوروبا والحضارة الغربية كما سيسهل من تعلم العربية على غير الناطقين بها كما طالبوا بتغيير قواعد النحو أو إلغائها نظراً لصعوبتها والإعاقة التي تضعها في وجه تقدم العربية.

التحديثيون المعتدلون لم يصلوا إلى تلك المطالبات الراديكالية وإنما توقفوا عند المطالبة بتعديل قواعد النحو والكتابة وإدماج اللهجات المحلية في اللغة الفصحى أو الوصول إلى لغة وسيطة بين اللغتين.

لكم ما يلفت الانتباه في قراءة سليمان للسجال المحتدم بين دعاة تحديث اللغة والمدافعين عنها كما يصفهم المؤلف هو الإدانة المستبطنة للفريق الثاني بشكل غير مباشر رغم أن المؤلف لا يتخذ موقفاً مؤيداً للفريق الأول وربما كان ثمة حاجة إلى تضمين فريق ثالث وسطي كان من دعاة التطوير المتدرج للغة لكن بما يحفظ هويتها وما يتناسب مع شخصيتها وعلائقها بالثقافة والتراث والدين وسوى ذلك.

صدام اللهجات

في الموضوع الثالث الذي يفرد له سليمان فصلاً مطولاً هناك استعراض لحالة اصطراع اللهجات المحلية ضد بعضها البعض وليس ضد اللغة الفصحى.

ويأخذ المؤلف حالة الأردن مثالاً مهما حيث يعيش هناك أردنيون من شرق الأردن وأردنيون من أصول فلسطينية. وهنا وعلى خلفية العلاقات السياسية المتوترة التي هيكلت طبيعة العلاقة بين الفئتين خلال العقود القليلة الماضية فإن اللغة المحلية اصبح لها دور في اللاوعي الجمعي يتناغم مع الموقف والبيئة السياسية العامة.

فغالبية الفلسطينيين- خاصة أولئك الذين هم من أصول فلاحية- ينطقون على سبيل المثال حرف القاف مخففاً أي: كاف في حين ينطقه الشرق أردنيون قافاً متخمة مثل لفظة الجيم المصرية. وقد غدا النطق بهذا الحرف وكأنه مميز للهوية الاثنية والسياسية فمن ينطقه كافاً فهو أردني من اصل فلسطيني ومن ينطقه قافاً فهو أردني أصيل.

ويتعدى الأمر ذلك إلى مسائل اكثر تعقيداً فكما يلاحظ سليمان هناك تبدل وتغير في اعتماد اللهجة المحلية المعينة بعكس رغبة المتكلم في الانتساب إلى مجموعة معينة أو انتحال صفة هوياتية أخرى.

فالأردني من أصل فلسطيني إن أراد تأكيد اردنيته في موقف ما فإنه يتبنى لهجة محلية أردنية وهو نفسه قد يعود إلى لهجته الفلسطينية في موقف آخر وهكذا تصبح كل لهجة وكأنها تؤدي وظيفة ظرفية ما ولها تموضع اجتماعي ثقافي سياسي محدد.

ومن جانب اخر ينتقد سليمان النموذج التحليلي المشتهر في قراءة اللهجات على أساس جندري "نوع الجنس" أي اختلاف اللهجة تبعاً للذكورة والأنوثة فمثلاً يلفظ حرف القاف المذكور أعلاه في المشرق من قبل الإناث بصوت الهمزة مقطوعة أو ممدودة" قمر تلفظ أمر وقالب تلفظ آلب" وفي بلدان شمال أفريقيا تلفظ الإناث حرف الراء في الفرنسي بصوت الغين- وهو لهجة سكان باريس- بينما يلفظ الذكور نفس الحرف بصوته المعروف متجنبين الاستخدام الأنثوي له.

ويرى أن هذا النموذج محدود في قدرته التفسيرية ولا يقدم تفسيرات شاملة للاستخدامات المتنوعة للهجات المحلية.

اللغة في الصراع العربي الإسرائيلي

في الموضوع الرابع والأخير يتوسع سليمان في تحليل وضع اللغة العربية في الصراع على فلسطين وهنا يعود إلى بدايات المشروع الصهيوني واعتماد اللغة العبرية وإقحامها في قلب المعركة ضد اللغة العربية.

فبعيد إنشاء الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ كان الاهتمام بالعبرية كلغة رسمية للدولة الوليدة مركزياً باعتبارها إحدى أعمدة الهوية الإسرائيلية المصنعة وبالتوازي مع تخليق لغة جماعية تتوافق عليها طوائف وجماعات اليهود القادمين من بقاع مختلفة من العالم كان لابد من طمس اللغة الأصلية ودحرها وتهميشها إلى ابعد مدى.

ويحفل الكتاب بصور تبين كيف كان الوضع المركزي للغة العربية إلى وقت قريب جداً من قيام دولة إسرائيل أي أثناء الانتداب البريطاني وكيف كانت علامات ولافتات الطرق والأماكن العامة تكتب بالإنجليزية أولاً ثم بالعربية وأخيرا بالعبرية. أما بعد قيام إسرائيل فقد أصبحت العبرية هي الأولى تليها الإنجليزية وفي الأخير تاتي العربية.

لكن الأهم من ذلك أن مئات القرى العربية تم محو أسمائها العربية وتسميتها بأسماء عبرية عوضاً عن ذلك وبذلك توازى التطهير الديمغرافي الذي قامت به الحركة الصهيونية عن طريق القوة العسكرية مع تطهير لغوي قامت به ماكينة الثقافة واللغة العبرية الداخلية.

ملامح الهوية الثقافية العربية

السيد نجم *

● منذ قرن مضى، انشغلت القريحة العربية بموضوع "الهوية"، هناك من تحمس إلى الإسلام كهوية، ومن رجح العربية، والبعض في مصر طالب بالمصرية، وتعددت الاطروحات والأفكار. والآن مع بدايات القرن الجديد (الحادي والعشرون)، تجددت القضية. ليس في الأمر ما يدهش، هكذا الأمم والشعوب، مثل الأفراد عليها أن تتوقف وتتأمل أحوالها بين الحين والحين، إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد دعت ..منذ أن شاع مصطلح "العولمة" و"الكوكبية" أو "القرية الكبيرة"، انقسم العالم إلى قسمين..أولهما يدعو متحمسا إلى مفاهيم تبدو جديدة وهم القلة، وقسم يسعى لاهثا للبحث والتاكد من حسن النوايا، وهم الكثرة.

يقع الوطن العربي في القسم الآخر، ولأن المثقف هو المحلل والحالم والمخطط وربما المتنبئ أيضا. أسرعت الأقلام وتسابق الجميع إلى البحث في الذات و الهوية، خصوصا الهوية الثقافية التي هي الإطار الحافظ والعمود الفقاري الداعم لكل النشاطات والأعمال الحياتية اليومية، وربما المستقبلية أيضا. وقد أشارت المراجع إلى أن تعريف "الثقافة" من التعدد والكثرة بحيث يصعب الوقوف أمام كل منها، إلا أن تعريف البريطاني "إدوارد بيرنت" منذ أكثر من القرن، مازال يحمل في طياته محاور أغلب التعريفات والأفكار التي تلته، فقال:

"الثقافة-أو الحضارة- بمعناها الأثنوجرافي الواسع- هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف، وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع".

واضح أنه حدد بعض الأمور الهامة داخل ذاك التعريف: أن الثقافة تحمل في طياتها الذهني المجرد مثل المعرفة والمعتقدات بجانب التقييمي مثل الأخلاق والسلوك والتقاليد. وأن "الثقافة" ليست العلوم أو الفنون فقط، بل أوسع من ذلك، فهي محصلة النشاط البشري لمجموعة البشر في بقعة ما على الأرض. أن "الثقافة" مستقلة عن الأفراد، فهي تكتسب بالممارسة الحياتية والتعلم، فهي ليست غريزية أو فطرية. كما أن "الثقافة" تعبر عن نفسها على شكلين..مادي (فنون وآداب، بل وحتى السلع)، ولا مادي (السلوكيات وأفكار المعتقدات والقيم..الخ).

إلا أن ما سبق ليس هو القضية التي شغلت الجميع حقيقة، انشغلوا أكثر بما يسمى "خصوصية ثقافة ما" وبالتالي خصوصية الثقافة العربية عندنا. وفى هذا الموضوع كتب "د.احمد أبو زيد" كتابه الهام "هوية الثقافة العربية". وقد وضع معيار تلك الخصوصية بعدد من العناصر هي:

■ "اللغة" .. حيث أن اللغة العربية لها أهمية خاصة مع العرب على هذه البقعة من الأرض، وهى بالفعل عامل تماسك بين شعوبها. ولا يتنبأ الكاتب بانفصال اللهجات عن اللغة الأم كما حدث في القارة الأوروبية، فكانت الإنجليزية، والفرنسية والإيطالية وغيرها..كلها عن اللاتينية.

■ "الدين" .. إذا كانت العربية لغة القرآن، فإن الإسلام هو الذي حمل العربية إلى مواقع فتوحاته الأولى. والدين هنا لا يلعب دور إتمام العلاقة بين الفرد وربه، أو هو أسلوب حياة فقط..بل لعب الدين في الوطن العربي دوره في الربط بين أفراده والناطقين بالعربية. ولا إكراه في الدين، فوجود الطوائف والأديان المختلفة إلى جوار الإسلام، ليس إلا تعبيرا عن رحابة ذلك الدين وأهله، كذا تمتع سكان الوطن الكبير من غير المسلمين تعبيرا عن الحرية المتداولة فيما بين الجميع.

كما أن الدين الإسلامي يقدم نسقا ثقافيا متميزا تتحدد به: نظرة الإنسان إلى نفسه، مع ثنائية الروح والجسم، وأن الروح من أمر الله. وللجسد حرمته.. كما تتحدد نظرة الإنسان إلى الخالق وعلاقته به.. وأيضا نظرة الإنسان إلى الكون والكم المعرفي في القرآن عن الكون يستحق التأمل ..كما يحدد الإسلام النظرة إلى الآخر من مسيحيين وديانات أخرى، على أنها ديانات سماوية.

■ "التراث" .. لقد تعاون الدين واللغة العربية فى الحفاظ على كيان العالم العربي وهوسته وثقافته خلال التاريخ العربي والإسلامي الطويل. ومازال يعيش فينا ذاك التراث القديم، ويعبر عن نفسه في الكثير من العادات والأفكار.

والبعض يتشكك في رابطة التراث تلك، فلم تتعرض اللغة أو الدين من تشكيك، قدر تعرض التراث، في كونه رابطة بين العرب. لذا يلزم الاعتراف بقدم وربما عدم جدوى بعض من ذاك التراث، إلا أن العربي أضاف إلى تجاربه الكثير بسبب التراث، ولا يمكن تجاهله.

والآن القضية، بعد البحث عن الروابط الثقافية بين العرب، هي الانفتاح على ثقافة الآخر، أو العلاقة بيننا والآخر، أو ما يسمى بالغزو الثقافي. فمن الصعب عزل أية ثقافة أو أفكار خاصة بشعب أو جماعة، بمعزل عن بقية العالم، نظرا لثورة الاتصالات الهائلة الآن. وهذا الاتصال من الممكن أن يثري الثقافات الخاصة. وربما لأن الغلبة للغرب فقد تخوف البعض واعتبرها غزوا ثقافيا. لكن الوعي بالقضية في حد ذاته يعتبر سدا آمنا للجميع.

وهناك قضية وثيقة الصلة بالثقافة، يجب الولوج فيها، ألا وهى: علاقة التعليم بالثقافة. فالتعليم يهدف في النهاية إلى إعداد الفرد للحياة الاجتماعية، يجب أن يكون النظام التعليمي متوائماً مع المفاهيم والثقافة العامة للمجتمع، كما يجب أن يكون التعليم متطورا بحيث يواكب التطور، على الرغم من أنه تطور وارد من الغرب. فالعلاقة متشابكة وهامة، والاتصال أفضل من الانفصال، وعلى رجال التعليم إعداد المواءمة المناسبة.

كما أن قضية التعريب والترجمة في القلب من قضايا الثقافة، ولا يمكن تصور تقدم ما، ما لم يلعب المترجم دوره في إضافة الجديد إلى الثقافة. هناك ترجمة المصطلحات العلمية، والتقنية، والفنية. وهناك ترجمة للمعلومات العلمية الموثقة . كذلك ترجمة للآثار الفكرية في كل بقاع الأرض. فمن الخطأ الظن أن الترجمة تنحصر في الغرب فقط.

أما الثقافة الإبداعية..قصة وشعر ومسرح وغيره، فهي المعبرة عن التعريف السابق من أن الثقافة هي المعبرة عن جماع النشاط البشري في بقعة ما. وليس أكثر تعبيرا عن ذاك النشاط إلا العمل الإبداعي، بكل صوره.

ومع ذلك هناك معوقات أمام تلك الثقافة الإبداعية في الوطن العربي، منها: أن البيت العربي لا يلعب دوره الواجب والمنوط به، بتربية الذوق الغني، والإحساس بالجمال، مع التنشئة الاجتماعية المناسبة. ربما بعض رجال الدين يقدمون بعض التفسيرات حول النشاط الإبداعي، وتسيء إليه. مع أنه من المعروف أن "الإبداع" ليس في الفن فقط، بل هو ملكة إذا أكتسبها الطفل، سوف يصبح ماهرا ومبدعا في عمله أيا ما يكون تخصصه. وربما يعاني النشاط الإبداعي من قلة الراعية الرسمية الواجبة ببعض الأقطار. كما أن أسلوب التعليم بالمدارس لا يحث على الإبداع، ويعتمد على التلقين والحفظ. ولا يمكن إغفال دور وسائل الإعلام في تهيئة الجميع لتقدير وفهم النشاط الإبداعي عموما.والمقصود بالنشاط الفني..الشعر والخط، والفنون التشكيلية، الموسيقى.

● وختاماً: لا يمكن إغفال الثقافة الشعبية، أو الشفهية، أو المتداولة بالسليقة والمتوارثة..فهي من ملامح الثقافة الحقيقية لأي شعب من الشعوب. والشعب العربي له تعددية اللهجات والثقافات المحلية، إلا أنها في مجملها قد تكون محددة بأطر متفق عليها، وتحكمها رؤى مشتركة..مثل الرؤى الدينية، ورسوخ بعض التقاليد الاجتماعية المتفق على أهميتها مثل الكرم..وغير ذلك. "الهوية" الثقافية العربية، موضوع متشعب وثري، ولا يحاط إلا بالكثير والكثير من الآراء والتناولات.

* كاتب عربي..

لماذا يتعدد الزواج والطلاق في الوسط الفني؟؟

□ أردت أن أقف في موضوعي هذا على تفسير ظاهرة تعدد الزواج والطلاق بين الوسط الفني الذي استرعى انتباهي وانتباه شريعة سنها الله سبحانه وتعالى على البشرية، فالأولى سنها الله تعالى للحفاظ على الجنس البشري ليكون بينهم مودة ورحمة، والثانية سنها الله تعالى - أيضاً - وبغضها في الوقت نفسه، وبين التشريع والبغض في أمر واحد عادة ما يكون عامل الاستحالة سبباً جوهرياً، فالطلاق أبغض الحلال عند الله، ولكن عندما تستحيل الحياة بين طرفين ويصبح الاستمرار أمراً مستحيلاً، عندئذ يستوجب الأمر ضرورة الانفصال راحة للطرفين وفرصة لكليهما أن يختار طريقاً آخر، وليس غريباً أن نسمع من متزوج أنه سئم من الحياة الزوجية، وليس غريباً - أيضاً - أن نسمع من عازب شوقه ولهفته للزواج، فقد ينعكس الأمر لدى العازب، فالعازب عادة مايرسم للزواج أحلاماً وردية، وبين العازب والمتزوج احتار الناس في مدى صدق الطرفين.

■. فاروق الجضري

أحد الباحثين قال إن العالم النفسي «يونج» اكتشف في الإنسان قوتين متكاملتين سماها «أنيموس وأنيما»، فالأولى للرجولة، والثانية للأنوثة، وأن هذا الازدواج موجود في شخصية كل رجل وامرأة ومن ثم نجد أن الرجل يعكس القسم الأنثوي من شخصيته على جميع النساء، وإذ كنت أخص في هذا الصدد الفنان، فالفنان عادة ما يجب أن يحافظ على مكانته من معجبيه وبتعبير آخر أن الفنان أو الفنانة تحاول قيام تلك الصفة «أنيموس وأنيما» في الطرف المعاكس له، وحين يحدث هذا التناسق يولد الحب الكبير الذي لدى الشخص العادي، فما بالنا بالفنان، وتلك الصفة تميز الوسط الفني بشكل خاص دون أفراد المجتمع، فمن يتخذون الطلاق حسماً لمشكلة استحال حلها، وإلاّ ما هو التفسير لتعدد الزواج والطلاق لديهم؟ وحتى لا أكون متجنياً عليهم أو متخبطاً في دعواي هناك أمثلة كثيرة من الفنانين والفنانات التي تنطبق عليهم هذه الظاهرة، ولكن لا داعي لذكر الأسماء.